أبو العـــلاء المعرى

التفاؤل والإيثار عند الشيخ

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

— ٦ —

الإيثارية L'altruisme

وافعـل بغيرك ما تهواه يفعله وأسمع الناس ما تختار تسمعه

هذا البيت يشمل الأثرة والإيثارية معاً .

ولحكماء الإغريق قبل التأريخ الميلادى بخمس مئة سنة وفى الإنجيل ولحكيم الصين ما يشبه قول الشيخ . وروى البخارى فى جامعه : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وروى ابن سعد فى (الطبقات) : « قال رسول الله ليزيد بن أسد : يا يزيدَ بنَ أسد ، أحبَّ للناس الذى تحب لنفسك » والأثر الكريم — كما ترى — هو أثرى وإيثارى . وروى البحترى فى حماسته لعبد الله بن معاوية الجعفرى :

ارض للناس مارضيت من الناس (م) وإلا فقـــد ظلمت وجرتا

ولأبى العتاهية :

ولا خير فيمن ظل يبغى لنفسه من الخير ما لا يبتغى لأخيه

وقال عبد الله ابن المقفع : « أعدلُ السير أن تقيس الناس بنفسك فلا تأتى إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك » .

وروى السبكى فى (طبقات الشافعية) لأبى سليمان الخطابى :

ارض للنـــاس جميعاً مثـــل ما ترضى لنفسك
إنما النـــاس جميعاً كلهم أبنـــاء جنسك
فلهم نفس كنفســـك ولهم حـــس كحسك

وفى (كامل) المبرِّد هذا القول : « خير الناس للناس خيرهم لنفسه » ، قال أبو العباس : « وذلك أنه إذا كان كذلك اتقى على نفسه من الشرق لئلا يقطع ، ومن القتل لئلا يقاد ، فسلم الناس منه باتقائه على نفسه » .

ولما دعا الإمام الأستاذ أرنست هيكل إلى تلك النحلة الطبيعية الوَحدية la religion moniste اتخذ تلك الحكمة دعامة آدابها .

ولو أنى حُييت الخلد فردا لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت علىّ ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

فيا وطنى ، إن فاتنى بك سابق
من الدهر فليتم لما كنتك البالى[1]

(١) من أجل ما قيل فى الإيثارية الكريمة هذا الشعر : =

الحديثة هنا نقلة بعيدة من القديم إلى الحديث مع اختلاف اللغة والمزاج والفكرة ونماذج التفكير والتعبير ، وما كان هناك إلا حلقة صغيرة فى سلسلة متشابكة الحلقات .

وسبيل المقابلة بين جهود الأدباء فى الشرق وجهود نظرائهم فى الغرب قريب جداً لمن يسمع ويعقل وإن كان بعيداً جداً عمن يسمعون ولا يعقلون ... أو يعقلون وقصارى عقلهم أن يصيحوا . كما صاحت بنيّة الريف : يا عجبا ! إنه لأنسان كسائر الناس .

سبيل المقابلة أن تختار خمسون سنة من تاريخ الأدبين ، ثم يرى الناقد من ذلك مبلغ التفاوت بين البداية والنهاية فى كل من الفترتين ، ومبلغ الجهد الذى كان لازما لاغنى عنه فى أحوال الأمتين

وإلى جانب هذا يختار كاتب أو شاعر من أصحاب المدارس هناك ثم تعرض له صفوة أعماله التى تتخذ للموازنة والمقابلة وتبنى عليها المناقشة والمفاضلة ، فلعل الكفة التى ترجح فى هذا الميزان غير الكفة التى ترجح فى ميزان السماع ، ولعل السالك فى الطريق المبد لا يبلغ شأن نظيره الذى يعلو ويهبط بين النجاد والوهاد ، ويفتح طريقه قدما قدما وهو مدلج فيه منقطع عن الرفيق .

تلك هى الحقيقة السهلة لمن يبصر الحقيقة إذا وقعت عينه عليها ، ولا ينتظرها كما ينتظر شيئاً يسمع به أبداً ولا يراه أو يدرى كيف يراه .

فاذا خفيت هذه الحقيقة البينة على من تصدمهم ولا يدرى كونها — فليس الخطأ فى ذلك خطأ الكتاب والأدباء ، ولكنه خطأ الحظ الذى رزقهم من القراء من يشبه تلك البنية الريفية اللماء ، وما أكثرهم فى الشرق على قلة القراء !

عباس محمود العقاد

وما سرني أني أصبت معاشراً بظلم وأني في النعيم مخـــلد

فانفع أخاك على ضعف تحس به إن النسيم بنفع الروح هباب

كيف لا يشرك المضيقـــين في النعمة قوم عليهم النعماء

انجـد أخاك على خـيريهم به فالمؤمنون لدى الخيرات أنجاد

فجـد بعرف ولو بالنزر محتسباً إن القناطير تحـوى بالقراريط

فـدار خصمك إن حق أنار له ولا تنـازع بتمويه وإجلاب

إذا ما تبينا الأمور تكشفت لنـا وأمير القوم للقوم خادم

لا يتركن قليـل الخـير يفعله من نال في الأرض تأييدا وتمكينا

أضيء بالمعروف وأتلق ، وأطلق عناك فندا تنطلق .

انظر بين يديك ، واجعل الشر تحت قدميـك ، وإذا دعا السائل فقل لبيك ، وإذا ألجأ عدوك الدهر إليك فانس حقودك الغبرات[1] .

أطعم سائلك أطيب طعاميك ، واكس العارى أجد ثوبيك ، وامسح دموع الباكية بأرفق كفيك .

الرجل كل الرجل من آتى الزكاة ، ورحم المسكين ، وتبرع بما لا يجب عليه ، وكره الحنث ، وكفر عن اليمين .

لتكن سماؤك ثرة[2] ، وثرى[3] أرضك قريبا ، فنعم الشيء الثراء لمن كسا العارى وأطعم السغبان .

ذُرّت[4] البركة في طعام أكل منه الضعيف ، ونزعت البركة من طعام خص به الغنى دون الفقير ، والله مطعم المطعمين . وزرّ

= علي أني أطرى الحسام إذا مضى وإن كان يوم الروع غيرى حامله

وآسى على جيحان إن غاض ماؤه وإن كان ذودا غير ذودى ناهله

(١) الغبرات : القديمات ، ومنه غبر الجرح إذا انتقض لفساد فيه قديم (أبو العلاء) .

(٢) عين ثرة : غزيرة الماء ، وكذلك السحابة ومطر ثر : واسع القطر (اللسان) .

(٣) الثرى : التراب الندى ، والثرى الندى (اللسان) وفي الأساس : وبلغت ثرى فلان إذا أدركت ما تطلب منه .

(٤) (ذرت) نثرت ، بذرت .

حرام يوقع المحقة في قميص انتسج من حـل ، وقطرة الدم تقع في الزادة[1] فلا يحل منها الطهور .

أرّ نارك لطارقك[2] ، ولا تؤرها لإحراق الجار ، والله جار[3] من لا جار له من المستضعفين . وبرّ في قلبك خير من بُرّة في يدك[4] فاتق الله ، وكن مع الأبرار الطاهرين .

قُد نفسك إلى الواجب ولو بجرير ، وكِد معاديك بأن تجتنب أفعال الكائدين ، ودل السائل لتكون نعم الدليـل ، ودم على ما قربك من الأبرار الطيبين ، ودن من فعـل خيراً معك فإنك مدين .

يا بغاة الآثام ، وولاة أمور الأنام ، مرتع الجور وخيم ، وغبه ليس بحميد ، والتواضع أحسن رداء ، والكبر ذريعة المقت ، والمفاخرة شر كلام . كلنا عبيد لله .

من بخل بطعام فقد بخل بقليل الأنعام .

سعدت رائحة قُتار ، تظهر تارة بعـد تار[5] ، ثم لا ينال خيرها الفقير .

النفاق يلبسك ثوب الإشفاق ، والافتقاد يذهب الأحقاد والأشر يهلك البشر ، لا كتبنا الله مع الأشرين !

ما ربا قُطُر[6] ورائحة حبيب عطر بأطيب من ثناء مستطر[7] يثني به بَرّ على مُبر[8] .

* * *

تلكم طائفة من أقوال الشيخ ، وفيها التفاؤل كله في الحياة

(١) (الزادة) ظرف من جلد يحمل فيه الماء .

(٢) أرى ناره تأرية : أشعلها ورفعها .

(٣) جاره : يجيره والبحترى :

شط من ساكن الغوير مزاره وطوته البلاد فالله جاره !

(٤) البرة : حلقة من سوار وقرط ، وخلخال من فضة أو ذهب

(٥) في (الصحاح) : وربما قالوه بحذف الهاء ، قال الراجز بالويل تارة والثبور تارة .

(٦) القطر — بضم الطاء وسكونها — العود الذي يتبخر به وقد قطر ثوبه ، وتقطرت المرأة ، والعود في المقاطر : المجامر

(٧) مكتوب .

(٨) البر الأمور : طلب بها البر والاحسان إلى الناس والتقرب إلى الله تعالى .

وفيها الأثرية — كما أن فيها الإشارية — وكان شيخنا « يلعب بالشطرنج والنرد ، ويدخل فى كل فن من الجد والهزل » كما روى الصفدى فى (نكت الهميان)

وكان خفيف الروح يدّعب ويُفاكه ، ومن فكاهته فى إحدى رسائله إلى أبى الحسين أحمد بن عثمان النكتى البصرى وقد غير هذا اسمه ، وقصر كنيته ـ هذه النبذة :

« ... وأهل البصرة[1] (سلمهم الله) ينسبون إلى قلة الحنين ، أليس قد مرت به هذه الحكاية وهى أنه وُجد على حجر مكتوب :

ما من غريب وإن أبدى تجلّده ... إلا سيذكر عند العلة الوطنا

فكتب تحته إلا أهل البصرة . فاذا كانت تلك سجيتهم مع أهلهم وأوطانهم ، فكيف بالذين عرفوهم من إخوانهم ؛ والدليل على ما قلت أنه ـ أدام الله عزه ـ لم يُثبت[2] اسمى ، جعلنى محمداً واسمى أحمد ... وله أن يقول إنه تشبث بالكنية فاستغنى بها عن الاسم . فأما أنا فحفظت اسمه وكنيته ونسبه ، ولم أنس أيامه ولا مذاكرته ، وقد جعلت جواب كتابه نائبا مناب الاجتماع معه...

وما عبت على أهل البصرة قلة التفاتهم إلى الاوطان وإنما وصفتهم بقوة القلوب والأكباد لأن العرب تصف نفومها بذلك ، أليس قد بلغه قول قتادة بن مسلمة الحنفى :

يبكى علينا ولا نبكى على أحد ... لنحن أغلظ أكباداً من الإبل

فكيف استجاز أن يقصر كنية صديقه ؛ أما السمة فغيرها ، وأما الكنية فقصرها ، فانا لله وإنا إليه راجعون ! هذا أمر من الله ، ليس هو من ضعف الشاعر ولا وهن القائل ولكنه من سوء الحظ لمن خوطب والاتفاق الردىء لمن سُمى وذكر ... وإنما تغوثت من ذلك لأنى قصير الهمة ، قصير اليد ، مقصور النظر ، أى مكفوف ، مقصور فى البيت أى لازم له ، فكأنى محبوس فيه . فما كفانى ذلك مع قصر الجسم حتى يضاف إليه قصر الاسم ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . لو كنت أطول من ظل الرمح لصرت أقصر من سالفة[1] الذباب ، قد كدت أمسح فى الأرض كما تمسح الظلال[2] ... وقد مدحنى بما ليس فىّ ، ولكنه فى ذلك على مذهب الخطباء والشعراء ، وزعم صاحب المنطق فى كتابه الثانى من الكتب الأربعة أن الكذب ليس بقبيح فى صناعة الشعر والخطابة ، ولذلك استجازت العرب أن تقول فتفرط ... »

وما (رسالة الغفران) العبقرية إلا كتاب أماليح وأفاكيه وأهاكيم[3]

وكان الشيخ كلفاً بالحمد والمجد « والثناء على الرجل أحسن الملبوسات[4] » « وغير ملوم من عشق الثناء لأنه أحسن حبيب مزور وأنقى مُنفِس مذخور[5] » وقد أعلن ذلك ابن القارح فى رسالته المشهورة إلى أبى العلاء :

« ... ويعلم الله الكريم (تقدست أسماؤه) أنى لو حننت إليه (أدام الله تأييده) حنين الواله إلى بكرها ، أو الحمامة إلى إلفها ، أو الغزالة إلى خشفها ـ لكان ذلك مما تغيره الليالى والأيام والعصور والأعوام ، لكنه حنين الظمآن إلى الماء ، والخائف إلى الأمن ، والسليم[6] إلى السلامة ، والغريق إلى النجاة ، والقلق إلى السكون ، بل حنين نفسه النفيسة إلى الحمد والمجد ، فانى رأيت نزاعها إليهما نزاع الاسطقسات[7] إلى عناصرها ، والأركان إلى جواهرها ... »

* * *

(١) البصرة : مثلثة والفتح والسكون اللغة العالية والنسبة إليها بكسر الباء وفتحها .

(٢) أثبت الشىء : عرفه حق المعرفة . وفى الأساس : أثبت الشىء معرفة إذا قطع علماً

(١) السالفة : جانب العنق .

(٢) مصح الظل : ذهب .

(٣) جمع أهكومة والأهكومة كالأعجوبة من التعجب

(٤) أبو العلاء فى (الفصول والغايات) .

(٥) أبو العلاء فى رسالة إلى بعض أولياء السلطان يشفع فى صديق له كان عاملا يعرف بالحسين بن عتبة . ومنفس كالنفيس ، نفس نفاسة وأنفس إنفاساً .

(٦) السليم : اللديغ ، وإنما سمى اللديغ سليما لأنهم تطيروا من اللديغ فقلبوا المعنى كما قالوا للحبشى أبو البيضاء ، وكما قالوا للفلاة مفازة تفاءلوا بالفوز وهى مهلكة (اللسان) .

(٧) العناصر الأربعة فى مذهب القدماء وهى الماء والسماء والأرض والهواء .

وإذا أقام أبو العلاء فى عرينه مضرباً فيه[١] ، فقد كان معطلا على الدنيا ـ وإن خيل أنه تخلى منها ـ وما كان أخا زهد[٢] فيها ، لا فكر له فى شىء . وكانت شؤون أمتـه تعنيه أيما عنـاية ، والمتشائم لا تهمه حالة ، ولا يبالى بأمر بالة . كتب إلى أبى الحسن ابن سنان ، وقد أوذم على نفسه الحج[٣] ، والعدو يزأر فى الثغور:

« ... وسفرُ مولاى إلى الحج فى هذه السنة حرام بَسْل... وهل سمع فى أخبار الصحابة (رحمهم الله) أو التابعين أن رجلا خرج من مُصافة العدو[٤] يريد بيت الله الحرام . . . وهو (أدام الله تمكينه) أمين من أمناء المسلمين ، يُرهف الشوكة[٥] ، ويستجيد اللأمة[٦] ، ويحصن ما وهى من سور ... البيت العتيق منذ عهد آدم يُزار ويحج ، ما خيف عليه انتقال ولا تحول ، ولا غيره عن العهد مغير ... أما يعلم أن لأهل البلد أُنساً برؤية شخصه واستماع قوله . وماينبغى أن يكون كما قيل فى المثل «لجَّ فحجَّ»[٧] ولو قال وليد لوليد فى ليل داج وهو محادث محاج : من يؤجره فى مقامه فى الديار أضعاف أجره فى حج واعتمار ؟ فقال الوليد الآخر: (محمد بن سعيد) لوقع سهمه غير بعيد . وحماية الذمار أولى من حج واعتمار ... » .

ولما صبأ الفتى طارق (خلده الله فى جهنم)

وفارق دين الوالدين بزائل ولولا ضلال بالفتى لم يفارق[١]

أرسلها (لزومية) صاعقة بجلجله أحرقت ذاك المضلل . وهذه اللزومية ـ وهى واحد وعشرون بيتاً[٢] ـ توضح فرط عنايته بأمته واستمساكه بنحلته ، وتنبئ بأنه كان يداخل القوم فى أحوالهم وإن كان جليس نفسه[٣]

* * *

اقرأ كلامى إذا ضم الثرى جسدى

فإنه لك ممن قاله ـ خلف[٤]

محمد إسعاف النشاشيبى

(١) اضرب فى بيته : لم يبرح .

(٢) كل من نسب إلى شىء فهو أخوه كقولهم أخو سفر وأخو عزمات وأخو قفار وأخو خمر وأخو لذة (المخصص) .

(٣) أوذم على نفسه حجا أوجبه وعم به أبو عبيد ، وأوذم على نفسه سفراً أوجبه (المخصص) .

(٤) صافه فهو مصاف إذا رتب صفوفه فى مقابل صفوف العدو . والمصاف — بفتح الميم وتشديد الفاء — جمع مصف وهو موضع الحرب الذى تكون فيه الصفوف (اللسان)

(٥) الشوكة : السلاح . رهف السيف وأرهفه رقق حده شحذه

(٦) اللأمة : الدرع المحكمة المائلة .

(٧) قال الميدانى فى شرح المثل : معناه أن رجلا خرج يطوف فى البلاد فاتفق حصوله بمكة فحج من غير رغبة منه ، لقيل : لج فى الطواف حتى حج ، قال أبو عبيد : يضرب للرجل يبلغ من لجاجته أن يخرج إلى شىء ليس من شأنه ، قال : وهذا من أمثالهم فى صعوبة الخلق واللجاجة .

(١) أبو العلاء .

(٢) ذكر الشيخ طارقاً هذا فى لزومية أخرى وفيها التوبيخ الشديد والذم البليغ .

(٣) فلان جليس نفسه إذا كان من أهل العزلة .

(٤) أبو العلاء .

إدارة البلديات
قسم المياه

تقبل عطاءات بإدارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ٢ مارس سنة ١٩٤٥ عن توريد أدوات مياه لتموين مخازن مجالس مديريات بنى سويف . الفيوم . المنيا . أسيوط . جرجا . قنا . أسوان . على أن تكون مناقصة كل مديرية على حدة بظروف خاص . وتطلب الشروط الخاصة بكل مديرية من الإدارة على ورقة دمغة من فئة الثلاثين مليما نظير دفع مبلغ ٥٠٠ مليم وذلك بخلاف ٦٠ مليما مصاريف بريد .

٣٢٢٧